مكتبة المقتطف

ديوان أبي فراس الحمداني

للدكتور سامي الدهان

ثلاثة أجزاء من القطع الكبير ، ٢٠٠ صفحة مقدمة بالفرنسية ، ٦٢٠ ص من الديوان مع الشروح والفهارس والتعليقات : بيروت : ١٩٤٤

تقدَّم الأستاذ سامي الدَّهان إلى جامعة السوربون في باريس يطلب الحصول على إجازة دكتوراه الدولة ، وكان موضوع الرسالة « ديوان أبي فراس الحمداني » . فنال بذلك الإجازة ، وأصبح حقيقاً بهذا اللقب ، يعني الدكتور سامي الدهَّان .

وقد رأت جامعة باريس أنَّ الجهد الذي بذله صديقنا الدكتور سامي الدهان في تحقيق قصائد هذا الشاعر ، وفي الرجوع الى المخطوطات المختلفة في سبيل هذا التحقيق ، يستحق أن يشرف به صاحبه .

وفي الحق ، لقد انقطع الدكتور سامي الى هذا العمل ، فطاف أنحاء أوربا يبحث في زوايا مكتباتها عن الديوان وشروحه ، حتى وفق إلى جمع ما يقرب من أربعين رسالة خطية ، كانت المادة التي ساغ منها هذا التحقيق الممتاز . وليس إخراج ديوان من أربعين نصًّا بالعمل اليسير .

وبهذا أصبحت المكتبة العربية تزدان بتحفة أدبية جميلة ، تحلي جيد الأدب العربي ، وهو أدب فريد في تاريخ الإنسانية ، لأنَّ الحضارة الإسلامية كانت أبرز الحضارات في العصر الوسيط .

ومن الغريب أن يظل شعراء المسلمين مغمورين في زوايا المكتبات وفي بطون المخطوطات ، وأغرب من ذلك أن يجهل البارزين منهم . ولذلك قال مسيو بلاشير في مقدمته للكتاب ،

« نلاحظ كثيراً ، ونأسف أكثر من ذلك ، أن شعراء العالم العربي الذين نعجب بهم أشدّ الإعجاب ، ولا تخفى منزلتهم في تراث الأدب ، هم أبعد الشعراء عنا معرفة . نعني بذلك بشار بن برد ، وأبا نواس ، وابن الرومي ، وابن الحجاج ، وأبا فراس . . . »

وهذا أول ديوان ، فيما نعلم ، تمّ إخراجه على هذا النحو العلمي من التحقيق والإحاطة والتدقيق . وهذا العمل يشبه ما تقوم به لجنة أبي العلاء من جمع آثاره وطبعها طبعة دقيقة محققة . والفرق بين ديوان أبي فراس ، وآثار أبي العلاء ، أن محقق الديوان فرد ، والمتصدين لأبي العلاء جماعة . وأن الدكتور الدّهان أتمّ عمله ، ولا تزال لجنة أبي العلاء في سبيل الإخراج ، وقد تنفق فيه سنوات وسنوات .

هذه نهضة أدبية لاريب فيها ، تقدّم لنا كنوز الأدب العربي في صورة جميلة صحيحة كالطاقة اليانعة الزهور .

وسوف ينهض المشتغلون بالأدب بمثل هذا المثال بعد أن عُبِّد لهم الطريق ، وتبين لهم المنهج السليم . والفضل للمتقدم في كل حال .

ولعلّ . . . هل يستحق أبو فراس الحمداني هذا العناء كله ؟

لقد قال التاريخ كلمته في هذا الشاعر ، وأصدر حكمه عليه . فمن المأثور أن الشعر ابتدأ بملك ، وانتهى بملك ، يعنون امرأ القيس ، وأبا فراس ، فهو ابن عم سيف الدولة الحمداني .

وقال الثعالبي « أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدباً وفضلاً ، وكرماً ومجداً ، وبلاغة وبراعة ، وفروسية وشجاعة . وشعره مشهور سائر بين الناس بالجودة ، والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة . ومعه وراء الفصيح وحشة الظرف ، وعزّة الملك . ولم تجتمع لشاعر قبله لشاعر قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز . وأبو فراس يعدّ أشعر منه عند أهل الصنعة ، وتقدمة الكلام . وكان الصاحب يقول : مبدأ الشعر بملك ، وختم بملك يعني بامرئ القيس وأبي فراس . وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتحامى جانبه ، فلا ينبري لمباراته ، ويجتزىء عن مجاراته . وإنما لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً . . . »

هذا هو رأي الثعالبي ، ينطق المتنبي بالشهادة في منزلة أبي فراس ، والمتنبي كما نعلم

إمام الشعراء ، وأكبر الظن أن أحكامنا على المتنبي وأبي فراس وأبي العلاء ، سوف تتغير بعد أن تقدم لنا جميع آثارهم لنوازن بينها في ضوء الواقع .

ويسرنا أن نعلن عزم الدكتور ساعي الدهان على إخراج ديوان المتنبي على النسق الذي أخرج به ديوان أبي فراس . وليس في هذا أي غرابة ، لأن الشاعرين متعاصران ، مشهوران ، متنافسان على الرغم من قول الثعالبي السابق الذكر .

ولا تظن أن تحقيق هذا الديوان أمرٌ يسير . ولو أن المحقق كان أمام مخطوط واحد لما وجد مشقة أو عسراً ، ولكنه بإزاء عشرات من المخطوطات تختلف فيما بينها من حيث الأبيات واختلاف القراءة والضبط . وقد يكون ذلك من تصحيف النساخ ، كما يكون من انتحال الرواة أو انحراف الذاكرة . وكل ذلك يحتاج الى الموازنة والترجيح ، والتماس النهج الصحيح .

وقد وقف الدكتور ساعي أمام صعوبة أخرى هي ترتيب قصائد الديوان ترتيباً تاريخياً بحسب المناسبات . ذلك أن شرح ابن خالويه ، وهو راوية أبي فراس ، لا يحدد التاريخ الذي نظمت فيه هذه القصائد . وفي سبيل ذلك لجأ الدكتور ساعي الى ديوان المتنبي والدراسات التي نشرت عنه وعن سيف الدولة الحمداني . ذلك أن المناسبات التي نظم فيها المتنبي قصائده معروفة ، والتاريخ الذي قيلت فيه مسجل ، وهي مناسبات تضم تلك التي نظم فيها صاحبنا أبو فراس .

ولد الشاعر في ٣٢٠ حتى إذا بلغ السادسة عشرة أصبح والياً على منبج ٣٣٦ . وفي سنة ٣٣٩ اشترك في الحرب مع البيزنطيين ، الى أن وقع أسيراً في أيديهم سنة ٣٥١ . وظل في قيود الأسر أربع سنوات ، حرٌ صريعاً بعد ثمانين في حرب له مع ابن عمه . ولذلك قسم الدكتور ساعي حياته ثلاثة أقسام . الأول قبل الأسر ، والثاني في الأسر ، والثالث بعد الأسر . ثم رتب القصائد على هذا الأساس ، وصنف تحت كل قسم أصنافاً ، في الحب ، والفخر ، والرثاء ، والهجاء . . .

وأنت ترى أن المحقق الفاضل قد بذل جهداً جديراً بالثناء والتقدير ، أحيا به كنزاً من الأدب الثمين .

دكتور أحمد فؤاد الأهواني